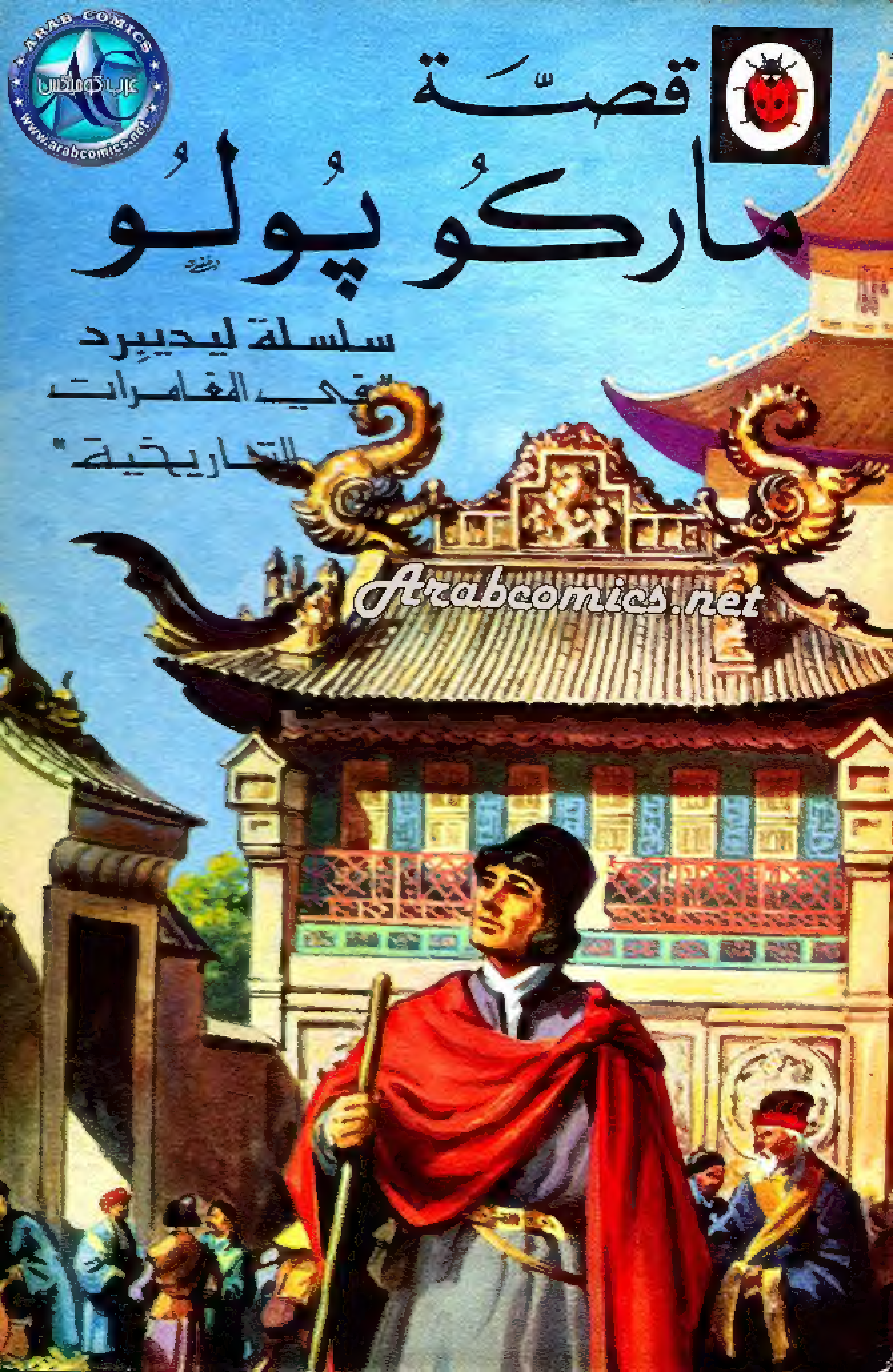
قصة ماركو بولو

سلسلة ليديبرد
في المغامرات
التاريخية *




رحلات
ماركو بولو
أوروبا
آسيا
صحراء غوبي
الصين
بكين
كان شو
كاشغر
سمرقند
بخارى
بلخ
كرمان
بغداد
ايران
باكو
القسطنطينية
البحر الاسود
سوداك
البندقية
جنوى
لاياس
عكا
القدس
البحر الابيض المتوسط
كابول
كشمير
بشاور
الهند
بورما
كين دو
ياشي
كارازان
كارايان
مين

كانَ ماركو بولو واحِدًا مِنْ أَعْظَمِ الرَّحّالَةِ في التّاريخِ . ويَكادُ يَكونُ أَوَّلَ رَجُلٍ أوروبِّيٍّ شَهِدَ عالَمَ شرقِ آسيا . وعِنْدَما عادَ إلى بَلَدِهِ كَتَبَ وَصْفًا لِكُلِّ ما رآهُ في رِحْلاتِهِ . وهذا الوَصْفُ هُوَ ما سَتَقْرَأُونَ جانِبًا مِنْهُ في هذا الكِتابِ .

طُبِعَ في انكلترا © الطبعة الأولى ١٩٧٤

قصة
ماركو پولو

بقلم : ل. دو غارد پيتش
نقلها الى العربية : عدنان كيالي
وضع الرسوم : جون كيني



الناشرون:
مكتبة لبنان
بيروت
ليديبرد بوك ليمتد
لافبورو
لونغمان
هارلو



ماركو بولو

وُلِدَ ماركو بُولو عامَ ١٢٥٤ في مدينة البُنْدُقِيَّةِ (فنيسيا) بإيطاليا.

كانَ السَّفَرُ إِلَى بِلادٍ بَعِيدَةٍ فِي تِلْكَ الأَيّامِ، أَيْ مُنْذُ سبعمئةِ عامٍ، أَشَدَّ خطَرًا وصُعُوبَةً مِمّا هُوَ عَلَيْهِ اليَوْمَ. وكانَ سُكّانُ أوروبّا لا يَعْرِفُونَ شَيْئًا، أَوْ يَعْرِفُونَ شَيْئًا قليلًا، عَنْ سُكّانِ البِلادِ البَعيدَةِ في العالَمِ.

كانَتِ السُّفُنُ تَأْتِي مِنْ وَقْتٍ إِلَى آخَرَ إِلَى ميناءِ البُنْدُقِيَّةِ قادِمَةً مِنْ بِلادِ الشَّرْقِ الأَقْصى، وحامِلَةً مَعَها أَقْمِشَةً حَرِيرِيَّةً وتَوابِلَ وجَواهِرَ غَرِيبَةَ الشَّكْلِ. ولكِنَّ هذِهِ البَضائِعَ كانَتْ تُنْقَلُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى البُنْدُقِيَّةِ، فتكونُ قَدِ انْتَقَلَتْ مِنْ سَفِينَةٍ إِلَى سَفِينَةٍ، وبذلِكَ لا يَعْرِفُ البَحّارَةُ الّذين أَوْصَلُوها إِلَى البُنْدُقِيَّةِ، البَلَدَ الأَصْلِيَّ الّذي أُرْسِلَتْ مِنْهُ.

وكانَتْ تُفَرَّغُ البالاتُ والصَّناديقُ في مَخازِنِ ميناءِ البُنْدُقِيَّةِ، ويُكَوَّمُ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ. وكانَ والِدُ الطِّفْلِ ماركو بولو تاجِرًا، وكانَ يَسْمَعُ مِنْ والِدِهِ عَنْ هذِهِ البَضائِعِ، فَيَذْهَبُ أَحْيانًا إِلَى الميناءِ، لِيَنْظُرَ بِدَهْشَةٍ إِلَى الحُرُوفِ الغَرِيبَةِ المَكْتُوبَةِ عَلَى الطُّرُودِ والبالاتِ، ويَتَساءَلُ عَنِ البِلادِ الّتي جاءَتْ مِنْها تِلْكَ البَضائِعُ.



وكانَ أبو ماركو، نِقولا بولو، يَمْتَلِكُ بَيْتًا في مَكانٍ يُدْعَى سُوداكَ في شِبْهِ جَزيرَةِ القِرْمِ بِرُوسيّا، ويَذْهَبُ إِلَيْهِ لِيَجْمَعَ البَضائِعَ الَّتي كانَتْ تَأْتي مِنْ بِلادِ الشَّرْقِ البَعيدَةِ، مارَّةً بِطَريقٍ، يُسَمَّى طَريقَ الحَريرِ، لِكَثْرَةِ ما كانَ يُنْقَلُ عَلَيْهِ مِنَ الأَقْمِشَةِ الحَريرِيَّةِ.

وعِنْدَما بَلَغَ ماركُو السّادِسَةَ مِنَ العُمْرِ، سافَرَ أَبُوهُ نِقولا وعَمُّهُ مافيو إِلَى سُوداكَ. فَوَدَّعَهُما ماركو عَلَى رَصيفِ الميناءِ، بالقُرْبِ مِنْ قَصْرِ دُوجِ البُنْدُقِيَّةِ، أَيِ القاضي الأَكْبَرِ فِيها، وعادَ مَعَ أُمِّهِ إِلَى بَيْتِهِ.

وكانَتِ الرِّحْلَةُ إِلَى سُوداكَ، ثُمَّ العَوْدَةُ مِنْها تَسْتَغْرِقُ في تِلْكَ الأَيّامِ أَسابيعَ كَثيرَةً. ومَرَّتِ الأَسابيعُ ثُمَّ الشُّهورُ، وماركُو يَنْتَظِرُ بِشَوْقٍ وحَنينٍ عَوْدَةَ أَبيهِ وعَمِّهِ، وهُما يَحْمِلانِ إِلَيْهِ كالعادَةِ هَدايا جَميلَةً وكَثيرَةً.

ولكِنَّ الشُّهورَ أَصْبَحَتْ سَنَواتٍ، ونَسِيَ الطِّفْلُ ماركو تَقاطيعَ وَجْهِ أَبيهِ. ثُمَّ ماتَتْ أُمُّهُ، وذَهَبَ الطِّفْلُ المِسْكينُ لِيَعيشَ عِنْدَ بَعْضِ أَقْرِبائِهِ.

وفي أَحَدِ أَيّامِ عامِ ١٢٦٩، دَخَلَتْ ميناءَ البُنْدُقِيَّةِ سَفينَةٌ قادِمَةٌ مِنْ مَدينَةِ إِسْتانبولَ، وعَلَى ظَهْرِها نِقولا أَبُو الطِّفْلِ وعَمُّهُ مافيو.



وكانَ ماركو قَدْ أَصْبَحَ صَبِيًّا كَبِيرًا في الخامِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ . فأَخَذَ يُنْصِتُ بِٱسْتِغْرابٍ إلَى ما كانَ أَبوهُ يَتَحَدَّثُ بِهِ إلَيْهِ عَنْ أَخْبارِ البِلادِ الغَرِيبَةِ الَّتِي زارَها في رِحْلَتِهِ الطَّوِيلَةِ .

لَمْ يُقِمْ نِقولا وأَخُوهُ مافيو طَوِيلًا في سُوداكَ ، حَيْثُ ٱلتَقَيا بَعْضَ التُّجّارِ الرُّوسِ ، الَّذِينَ تَحَدَّثُوا إلَيْهِما عَنِ البَضائِعِ المُمْتازَةِ الرَخِيصَةِ ، الَّتِي يُمْكِنُ شِراؤُها مِنْ بِلادٍ شَرْقِيَّةٍ بَعِيدَةٍ .

ووَصَلَ نِقولا ومافيو إلَى مَدِينَةٍ تَقَعُ إلَى الشَّرْقِ مِنْ بَحْرِ قَزْوِين ٱسْمُها بُخارَى . ومِنْ هُناكَ نَوَيا العَوْدَةَ إلَى البُنْدُقِيَّةِ . ولٰكِنَّهُما وَجَدا في طَرِيقِهِما حَرْبًا مُشْتَعِلَةً في بِلادِ فارِسَ (إيران) ، جَعَلَتِ السَّفَرَ خَطِرًا . وهٰكَذا فَضَّلا أَنْ يَسْتَمِرّا في السَّفَرِ نَحْوَ الشَّرْقِ بِرِفْقَةِ بَعْضِ التُّجّارِ الصِّينِيِّينَ .

وأَخِيرًا وَصَلَ الأَخَوانِ إلَى بكينَ عاصِمَةِ الصِّينِ ، الَّتِي تَبْعُدُ عَنْ مَدِينَةِ بُخارَى ، عِدَّةَ مِئاتٍ مِنَ الكيلومتراتِ . ولَمْ يَسْبِقْ لِأَحَدٍ مِنْ أوروبّا أَنْ وَصَلَ إلَيْها مِنْ قَبْلُ .



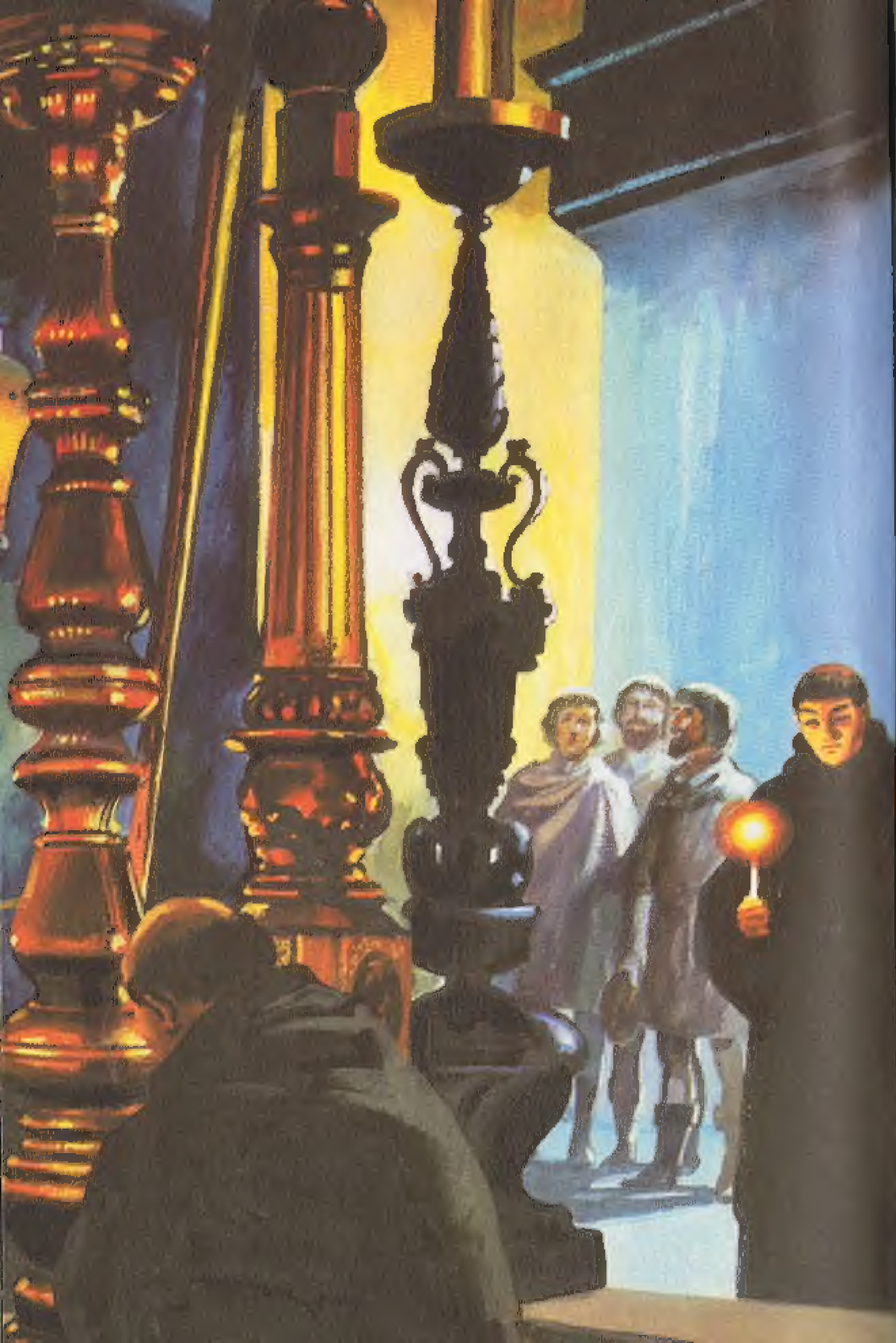
وقامَ كُبْلا خانُ إمبراطورُ الصِّينِ بِٱسْتِقْبالِ نِقولا ومافيو ٱسْتِقْبالًا حسَنًا . واستمَعَ بِٱهْتِمامٍ إلَى ما حدَّثاهُ بِهِ عَنِ الطَّرِيقَةِ الَّتي يَعِيْشُ بِها سُكّانُ العالَمِ الغَرْبِيِّ .

وسَمِعَ كُبْلا خانُ أَوَّلَ مَرَّةٍ عَنِ الدِّينِ المَسِيحيِّ ، فَطَلَبَ مِنَ الرَّجُلَيْنِ أَنْ يَعُودا إلَى البُنْدُقِيَّةِ ، ويَأْتِيا بِبَعْضِ الرُّهْبانِ المَسِيحِيِّينَ . ولَمْ يَعْرِفِ الأَخَوانِ قَصْدَهُ مِنْ ذٰلِكَ ، ولٰكِنَّهُ رُبَّما كانَ يُرِيدُ أَنْ يُقْنِعَ الرُّهْبانُ سُكّانَ الصِّينِ بِأَنْ يَعْتَنِقُوا الدِّينَ المسيحيَّ .

وعِنْدَما كانَ نِقولا ومافيو يَسْتَعِدّانِ لِرِحْلَةِ العَوْدَةِ الطَّوِيلَةِ إلَى بِكِينَ ، كانَ ماركو قَدْ بَلَغَ السّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ . فَقَرَّرَ أَبُوهُ وعَمُّهُ أَنْ يَأْخُذاهُ مَعَهُما .

وفي عامِ ١٢٧١ صَعِدَ ماركو بولو إلَى ظَهْرِ سَفِينَةٍ صَغِيرَةٍ كانَتْ تَرْسُو في ميناءِ البُنْدُقِيَّةِ . وبَدَأَ مَعَ أَبِيهِ وعَمِّهِ رِحْلَةً دامَتْ ثَلاثَ سَنَواتٍ ونِصْفَ السَّنَةِ ، وجَعَلَتْ ماركو واحِدًا مِنْ أَشْهَرِ الرَّحّالَةِ في العالَمِ كُلِّهِ .

أَبْحَرَتِ السَّفِينَةُ الشِّراعِيَّةُ مِنَ البُنْدُقِيَّةِ إلَى ميناءِ عَكّا . ثُمَّ سافَرَ الثَّلاثَةُ بَرًّا إلَى مَدِينَةِ القُدْسِ .



وفي عكّا التقى نقولا ومافيو وماركو قسّيسًا يُدْعَى ثيوبالد، أصْبحَ فيما بَعْدُ البابا غريغوريوس العاشِرَ.

وحدَّثَ نقولا القِسّيسَ ثيوبالدَ بأَخْبارِ رِحْلَتِهِ الأُولى إلى الصِّين، وكَيْفَ طَلَبَ الإمبراطورُ كُبْلا خانُ مِنْهُ ومِنْ أخيهِ أَنْ يَعُودا إلى الصِّينِ مرَّةً ثانيةً، ومَعَهُما عَدَدٌ مِنَ القِسّيسينَ لِيَنْشُروا الدِّينَ المسيحيَّ بَيْنَ أَهْلِ الصِّينِ. وحينَ سَمِعَ ثيوبالدُ ذلِكَ وعَدَ بأَنْ يجدَ لَهُ راهِبَيْنِ، يُوافِقانِ عَلَى تَحمُّلِ الصُّعُوباتِ والأَخْطارِ في سَبيلِ الكَنيسةِ.

وبَعْدَ فَتْرَةٍ قَصيرَةٍ بَدَأَ أَبْناءُ البُنْدُقِيَّةِ الثَّلاثَةُ يَسْتَعِدُّونَ لِرِحْلَةٍ بَرِّيَّةٍ طَويلَةٍ، يَمُرُّونَ فيها وَسَط آسيا.

وكانَ في كَنيسَةِ القيامَةِ بالقُدْسِ مِصْباحٌ ظَلَّ مُضاءً مُدَّةً تَزيدُ عَلَى أَلْفِ عامٍ. فأَحَبَّ نقولا أَنْ يَأْخُذَ جُزْءًا مِنْ زَيْتِ ذلِكَ المِصْباحِ لِكَيْ يُضيءَ بِهِ مِصْباحَ المَسيحيَّةِ في الصِّينِ. فَوافَقَ رِجالُ الكَنيسَةِ عَلَى طَلَبِهِ. ثُمَّ سافَرَ الخَمْسَةُ، أَيْ نِقولا ومافيو وماركو والرّاهِبانِ قاصِدينَ «لَياسَ»، وهِيَ مَدينَةٌ اشْتَهَرَتْ بتجارَةِ التَّوابِلِ والأَقْمِشَةِ المُذَهَّبَةِ. وكانَ التُّجّارُ الأُوروبِّيُّونَ الذّاهِبُونَ إلَى الشَّرْقِ يَبْدَأُونَ رِحْلاتِهِم عادَةً مِنْ تِلْكَ المَدينَةِ.



ومِنْ «لَياسَ» امتدَّتْ طريقٌ تتّجهُ شرْقًا عَبْرَ بِلادِ فارِسَ (إيرانَ اليَوْمَ) .

ولَمْ تكُنْ تِلْكَ الطَّريقُ طريقًا بالمَعْنى الّذي نَفْهَمُهُ اليَوْمَ مِنْ هذِهِ الكَلِمَةِ . فَقَدْ كانَتْ طَريقًا وَعْرَةً في بَعْضِ أَجْزائِها ، ورَمْلِيَّةً صَحْراوِيَّةً في أَجْزائِها الأُخْرى . وكانَ المُسافِرُونَ يَجِدُونَ أَمامَهُمْ أَحْيانًا أَنْهارًا يُضْطَرُّونَ إلى خَوْضِها ، بَعْدَ أَنْ يَخْلَعُوا أَحْذِيَتَهُمْ ، وأَحْيانًا يُضْطَرُّونَ إلى قَطْعِها سِباحَةً . وكَثيرًا ما كانَتِ الطَّريقُ تَمُرُّ بَيْنَ أَوْدِيَةٍ عَميقَةٍ جِدًّا ومُخيفَةٍ .

وكانَ الحَديثُ عَنْ هذِهِ الطَّريقِ المُخيفَةِ قَدْ بَدَأَ يَمْلأُ قَلْبَ الرّاهِبَيْنِ بالخَوْفِ . وعِنْدَما صارُوا قَريبِينَ مِنْ بِلادِ فارِسَ ، التَقَوْا بَعْضَ الفُرْسانِ المُسَلَّحينَ ، الّذينَ أَبْلَغُوهُمْ أَخْبارًا عَنْ حَرْبٍ تَدُورُ بَيْنَ جَيْشِ مَلِكِ مِصْرَ ، وجَيْشٍ مِنَ المَغُولِ الغُزاةِ المُتَوَحِّشينَ . فخافَ الرّاهِبانِ ورَفَضا الاسْتِمْرارَ في السَّفَرِ . فسافَرَ الثَّلاثَةُ الباقُونَ نِقولا ومافيو وماركو وَحْدَهُمْ .

وكانَ الأَبْطالُ الثَّلاثَةُ يَسيرُونَ أَحْيانًا عَلى أَقْدامِهِمْ ، ويَرْكَبُونَ أَحْيانًا البِغالَ والجِمالَ ، ويَنامُونَ في اللَّيْلِ تَحْتَ السَّماءِ والنُّجومِ . ولا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ ماركو قَدْ بَدَأَ يَحِنُّ إلى بَيْتِهِ المُريحِ الدّافِئِ في البُنْدُقِيَّةِ ، ولكِنَّهُ التَزَمَ الصَّبْرَ ، ولَمْ يُبْدِ أَيَّ تَذَمُّرٍ .



وأخيرًا، وَجَدَ ماركو نَفْسَهُ في بِلادٍ غَريبَةٍ عَجيبَةٍ، لَمْ يَرَ مِثْلَها مِنْ قَبْلُ. ومِنْ حُسْنِ الحَظِّ أَنَّهُ كَتَبَ مُلاحَظاتٍ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ رَآهُ في تِلْكَ البِلادِ، وفي الطَّريقِ الَّتي مَرَّ بِها.

ومِنْ أَعْجَبِ ما رَآهُ نَبْعٌ مِنْ زَيْتِ النَّفْطِ، أي البترول. كانَ يَصْعَدُ مِنْ جَوْفِ الأَرْضِ، ويَنْطَلِقُ عالِيًا وبِقُوَّةٍ فَوْقَ سَطْحِ الأَرْضِ. وأَخبَرَهُ سُكَّانُ تِلْكَ البِلادِ أَنَّ زَيْتَ هذا النَّبْعِ لا يَتَوَقَّفُ عَنِ الاندِفاعِ مِنْ باطِنِ الأَرْضِ أَبَدًا، لا في ساعاتِ اللَّيْلِ ولا في ساعاتِ النَّهارِ. وكانَ النّاسُ يَسْتَخْدِمُونَ هذا الزَّيْتَ لِكَيْ يُضيئُوا بِهِ مَصابيحَهُمْ أَوْ لِكَيْ يَفْرُكُوا بِهِ جُلُودَ جِمالِهِمْ.

وأَخَذَ هذا المَكانُ يَتَطَوَّرُ، مُنْذُ ذلِكَ الحينِ إلى أَنْ أَصْبَحَ اليَوْمَ يُعْرَفُ بِحُقُولِ نِفْط (زيتِ) باكو في الاتِّحادِ السُّوفياتيِّ. ومِنْ هذِهِ الحُقُولِ تُسْتَخْرَجُ كُلَّ عامٍ مَلايينُ الغالوناتِ مِنَ النَّفْطِ. ويَجْري تَحْويلُ هذا النَّفْطِ بَعْدَ استِخْراجِهِ إلى بنزينٍ لِتَسْييرِ السَّيّاراتِ والطّائِراتِ، الَّتي تَمْلأُ اليَوْمَ أَجْواءَ هذا العالَمِ.

واستَمَعَ ماركو أَيْضًا إلى كَثيرٍ مِنَ القِصَصِ والأَساطيرِ المَحَلِّيَّةِ، الَّتي كَتَبَها فيما بَعْدُ. ومِنْ بَيْنِ هذِهِ القِصَصِ قِصَّةُ فُلْكِ نُوحٍ أَيْ سَفينَةِ نُوحٍ، الَّتي قالَ لَهُ أَهالي هذِهِ المِنْطَقَةِ إِنَّها لا تَزالُ مَوْجُودَةً في رَأْسِ جَبَلٍ عالٍ هُناكَ يُدْعَى جَبَلَ أَرارات، وهو الجَبَلُ الَّذي استَقَرَّتْ عَلَيْهِ السَّفينَةُ بَعْدَ أَنْ جَفَّتْ مِياهُ الطُّوفانِ.



وَمِنْ بَلْدَةِ باكو تَوَجَّهَ المُسافِرُونَ الثَّلاثَةُ نَحْوَ الجَنُوبِ قاصِدِينَ مِنْطَقَةَ الخليجِ العربِيِّ (كانَ يُعْرَفُ باسمِ الخليجِ الفارسيِّ) على أَمَلِ العُثُورِ على سفينةٍ تَنْقُلُهُمْ مِنْ هُناكَ حَوْلَ الهِنْدِ. لِيَصِلُوا في النهايةِ إلى الصِّينِ وبِذلِكَ يتجنَّبُونَ السَّفرَ برًّا عنْ طَريقِ صحْراءِ غوبي الخطِرَةِ.

وكانُوا يقْطعُونَ كُلَّ يومٍ عِشْرِينَ مِيلًا فقطْ. لِأَنَّ الطَّريقَ كانتْ سَيِّئَةً جدًّا، والطَّقْسُ حارًّا جدًّا. وكانَ ذلِكَ يُجْبِرُهُمْ على التَّوقُّفِ عِنْدَ مُنْتصفِ كُلِّ يومٍ ثَلاثَ ساعاتٍ أَوْ أَرْبعًا. وبَعْدَ أيامٍ كثيرةٍ وصلَ المُسافِرُونَ إلى مدينةِ بغْدادَ العظِيمةِ. الّتي وصفها ماركُو بأنَّها «أَفْخَمُ مدينةٍ في هذا الجُزْءِ مِن العالمِ وأَكْبَرُها.»

كانتْ بَغْدادُ تشْتهِرُ بالمُخْملِ والأَقْمشةِ المُذهَّبةِ والأَقْمشةِ الحريريَّةِ المُطرَّزةِ. الّتي لا بُدَّ أنْ تكُونَ قدْ أدْهشتْ تُجّارَ البُنْدُقيّةِ وكانتْ بَغْدادُ أيْضًا هيَ مَدينةَ الخليفةِ العظيمِ هارونَ الرَّشيدِ، ومدينةَ ألفِ ليْلةٍ وليْلةٍ. وعِنْدما زارها ماركو، كانتْ تتألّقُ بالمساجِدِ الفخْمةِ المُبلَّطةِ أرْضُها بِحجارةِ الفُسيْفساءِ الجميلةِ، والّتي ترْتفِعُ مِنْ داخِلِها المآذِنُ الجميلةُ. وتُحيطُ بِها بساتينُ النَّخيلِ والحَدائِقُ الزّاهِرةُ.



أَمّا المَدينَةُ الّتي كانَ ماركو وعَمُّهُ وأَبوهُ يُريدونَ السَّفَرَ إِلَيْها بَعْدَ بَغْدادَ، فَهِيَ مَدينَةُ كَرْمانَ.

ولِكَيْ يَصِلوا إِلى مَدينَةِ كرمان قطَعوا السُّهول الشَّمالِيَّةَ مِنْ فارِس (إيران)، دُون أَنْ يُقابِلوا في طَريقِهِمُ الجُيوشَ الّتي قال النّاسُ لَهُمْ إِنَّها تتحارَبُ هُناك، فَأَدْخَلوا بِذلِكَ الخَوْفَ في قُلوبِ الرّاهِبَيْنِ، فعادا إِلى القُدْسِ.

وفي الحقيقة أَصْبَحتِ الرِّحْلَةُ مُمْتِعةً جِدًّا. فَقَدْ كان يُرافِقُ الثَّلاثَةَ القادِمين مِنْ مَدينَةِ البُنْدُقِيَّةِ في السَّفَرِ عددٌ مِن التُّجّارِ، ومعهُمْ عَبيدُهُمْ وحَرَسُهُمْ. وكانَتْ كُلُّ مَجْموعَةٍ مِنَ المُسافِرينَ تُسَمّى قافِلَةً. وكان عددُ المُسافِرينَ في كُلِّ قافِلَةٍ يَصِلُ أَحْيانًا إِلى المِئاتِ مِن الرِّجالِ والمِئاتِ مِن الجِمالِ، لِأَنَّ هذِهِ البِلادَ كانَتْ تَكْثُرُ فيها العِصاباتُ واللُّصوصُ. ولِهذا لا يُسافِرُ فيها أَحَدٌ وَحْدَهُ، بَلْ يُسافِرُ النّاسُ جَماعاتٍ.

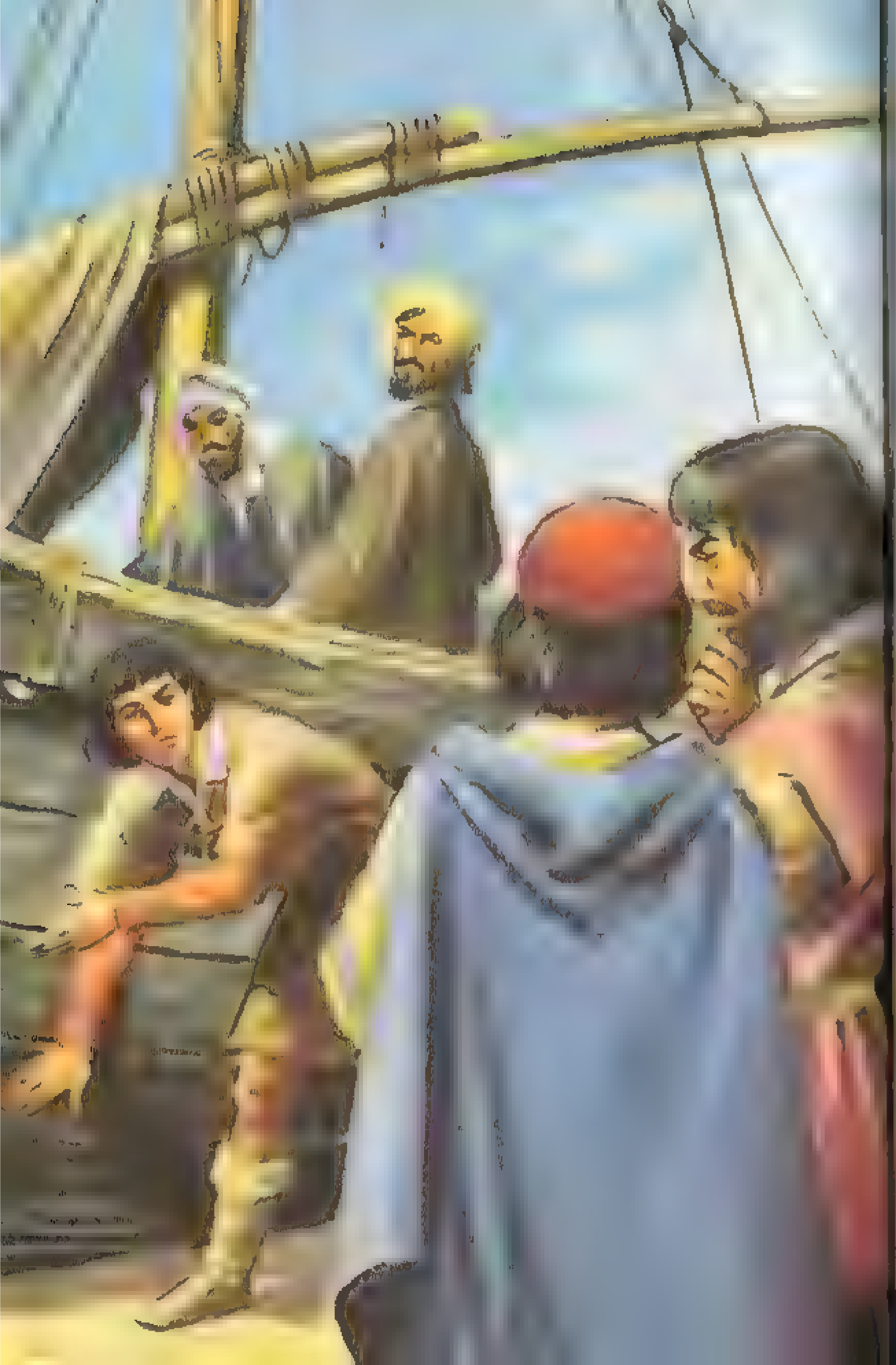
ولَمْ تَكُنِ الطَّريقُ دائِمًا صحْراوِيَّةً، أَوْ تتخلَّلُها مَمَرّاتٌ عالِيَةٌ خطِرةٌ. فقَدْ كانَتْ هُنالِكَ مراعٍ كَثيرَةٌ خِصْبَةٌ، بَلْ إِنَّ الصَّحْراءَ ذاتَها فيها واحاتٌ مُمْتَلِئَةٌ بِأَشْجارِ النَّخيلِ. ويُحَدِّثُنا ماركو، في الكُتُبِ الّذي أَلَّفَهُ فيما بعْدُ، عنِ الصَّيْدِ في هذِهِ المَناطِقِ، وخُصوصًا الصَّيْدِ بِواسِطَةِ الصُّقورِ.



وفي مَدينَةِ كرمدَ تَشَعَّبَتِ الطَّريقُ . فَٱنْقَسَمَتِ القافِلَةُ إلَى قِسْمَيْنِ . قِسْمٍ سارَ شَرْقًا ، واتَّخذ الطَّريقَ الشَّماليَّ المُؤدِّي إلى شَمالِ أفْغانِستان ، وقِسْمٍ سارَ في الطَّريقِ الجنوبيِّ المُؤدِّي إلى مِيناءٍ يَقعُ في طَرَفِ الخَليجِ العربيِّ ، ويُسَمَّى هرمزَ .

واخْتارَ ماركو وعَمُّهُ وأَبُوهُ الطَّريقَ الجنوبيَّ ، الَّذي كانَ يَمُرُّ وَسَطَ جِبالٍ وَعِرةٍ . وبَيْنَما كانَ ماركو يَسيرُ فَوْقَ مَمَرٍّ يَبْلُغُ ارتفاعُهُ عَشرةَ آلافِ قدمٍ ، أُصيبَ بِبَرْدٍ شَديدٍ ، فَنَزلَ إلى مِنْطَقَةِ السُّهُولِ ، وتَعَرَّضَ لِحرارَةٍ شَديدةٍ مُلْتَهِبَةٍ . وفي هذِهِ السُّهُولِ تَعرَّضَ التُّجّارُ لِهُجُومٍ قامَتْ بِهِ عِصاباتُ اللُّصُوصِ .

ودارَتْ بَيْنَ حَرَسِ القافِلَةِ وعِصاباتِ اللُّصُوصِ مَعْرَكةٌ شَديدَةٌ . ولكِنَّ عَدد الحرسِ كانَ قَليلًا . ولَوْلا هُروبُ التُّجّارِ والحَرَسِ إلى قَلْعَةٍ مُجاوِرَةٍ ٱسْمُها قَلْعَةُ كُونْسالْمي ، لَقُتِلَ ماركو ومَنْ مَعَهُ ، أَوْ أُخِذُوا أَسْرَى ، أَوْ بِيعُوا لِيُصْبِحُوا عبيدًا . ولكِنَّ اللُّصوصَ هَرَبُوا بَعْدَ أَنِ ٱحْتَمَى التُّجّارُ بالقَلْعَةِ . ثُمَّ واصَلَ ماركو والَّذينَ يُرافِقُونَهُ السَّفَرَ إلَى أَنْ وَصَلُوا إلَى مِيناءِ مَدِينَةِ هرمزَ .



وعِنْدَما وَصَلَ ماركو وأبوهُ وعَمُّهُ إلَى مِيناءِ هرمزَ بِسَلامٍ، ذَهَبُوا إلَى رَصِيفِ المِيناءِ، لِيُفَتِّشُوا عَنْ سَفِينَةٍ يُكْمِلُون رِحْلَتَهُمْ بِها. ولكِنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا سَفِينَةً مُناسِبَةً لِرِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ، تَسْتَطِيعُ أَنْ تَدُور بِهِمْ حولَ الهِنْدِ كُلِّها. ويَصِفُ ماركو في كِتابِهِ السُّفُنَ الَّتي تَرْسُو في هرمزَ بِأَنَّها رَدِيئَةٌ وخَطِرَةٌ جِدًّا.

ويَتَحَدَّثُ ماركُو في كِتابِهِ عَنْ طَرِيقَةِ صُنْعِ تِلْكَ السُّفُنِ، فيَقُولُ إِنَّها لَيْسَ فيها مِسْمارٌ واحِدٌ. وذلِكَ لِأَنَّ الخَشَبَ الَّذي صُنِعَتْ مِنْهُ سَرِيعُ الانْكِسارِ والتَّشَقُّقِ. فإذا دَقَّ العُمَّالُ مِسْمارًا فيهِ انْشَقَّ الخَشَبُ وتَكَسَّرَ، كَأَنَّهُ مِنَ الزُّجاجِ أَوِ الخَزَفِ. ولِهذا تُوصَلُ أَلْواحُ الخَشَبِ في السَّفِينَةِ مَعًا بِواسِطَةِ مَسامِيرَ مَصْنُوعَةٍ مِنَ الخَشَبِ، وبِواسِطَةِ حِبالٍ مَجْدُولَةٍ مِنْ قُشُورِ أَشْجارِ جَوْزِ الهِنْدِ. ولِكُلِّ سَفِينَةٍ مِنْها شِراعٌ واحِدٌ فقَط. ولَيْسَ لَها مِرْساةٌ. ولِهذا تَنْدَفِعُ هذِهِ السُّفُنُ أَحْيانًا نَحْوَ الشّاطِئِ، وتَتَكَسَّرُ حِينَ يَهِيجُ البَحْرُ.

وعِنْدَما رَأَى نِقولا تِلْكَ السُّفُنَ الرَّدِيئَةَ، خَشِيَ أَنْ يُسافِرَ فيها، وقَرَّرَ العَوْدَةَ إلَى مَدِينَةِ كَرمانَ لِيَسِيرَ في الطَّرِيقِ الشَّمالِيِّ البَرِّيِّ إلَى الصِّينِ.



وعادَ ماركو وأبوهُ وعمُّهُ إلَى كَرْمانَ ، قاطِعِينَ طَرِيقًا طُولُها مِئتا مِيلٍ . وكانُوا يَذْكُرونَ بِمَرارةٍ شِدَّةَ البَرْدِ الَّذي تعرَّضُوا لهُ في ممرّاتِ هذِهِ الطّريقِ الجَبَلِيَّةِ ، وهُمْ قادِمُونَ إلَى هرمز ، وشِدَّةَ الحَرِّ الَّذي تعرَّضُوا لهُ في سُهُولِها . ولكِنَّ أَشدَّ ما كانُوا يخافُونَ مِنْهُ هُوَ العِصاباتُ ، فهُمْ لمْ ينْسَوْا بعْدُ العِصابَةَ الّتي هاجمَتْهُمْ عِنْدما قطعُوا هذِهِ الطّريقَ أوّلَ مرَّةٍ .

وهكذا سافَرُوا إلَى كَرْمانَ وهُمْ حَذِرُونَ ، ولكِنَّهُمْ تمكَّنُوا في النِّهايَةِ مِنَ الوُصُولِ إلَيْها سالمِين . ثُمَّ سافَرُوا مِنْ بَلْدَةِ كَرْمانَ شَرْقًا .

وكانَتْ طَرِيقُهُمْ هذِهِ المرَّةَ وَسَطَ صَحْراءَ جَرْداءَ لَيْسَ فيها سِوَى الرِّمالِ ، فلا شَجَرَ ولا ماءَ ، بَلْ حَرارَةٌ مُلْتَهِبَةٌ ، كانَتْ حتَّى الحَيَواناتُ تَتَجَنَّبُ المُرورَ مِنْها .

ويُحَدِّثُنا ماركو كَيْفَ كانَ هُوَ ومَنْ مَعَهُ يَحْمِلُونَ معَهُمُ الطَّعامَ والماءَ ، وهُمْ يَقْطَعُونَ هذِهِ الصَّحْراءَ الّتي انْتَهَتْ عِنْدَ بَلْدَةِ بَلْخَ .

وفي بَلْدَةِ بَلْخَ تفرَّعَتِ الطّريقُ مرَّةً أُخْرَى إلَى ثَلاثَةِ فُرُوعٍ . واحِدٌ يتّجِهُ شمالًا نحْوَ مدينَةِ سَمَرْقَنْدَ ، والثّاني يتَّجِهُ جنُوبًا نحْوَ مدينةِ بيشاوِرَ مارًّا بمدينَةِ كابُلَ ، والثالثُ يتَّجِهُ نحْوَ الشّمالِ الغَرْبِيِّ ، ويَصِلُ إلَى مَدينَةِ بُخارَى .

ولكِنَّ نِقولا قَرَّرَ ، بَعْدَ أَنْ تَشاوَرَ مَعَ الجَمّالَةِ (أَصْحابِ الجِمالِ) ، أَنْ يُسافِرَ شَرْقًا قاصِدًا مَدينَةَ كاشْغَرَ .



وكانَتْ هذِهِ الطَّريقُ قَصيرَةً ، ولكِنَّ فيها مِنْطَقَةً جَبَليَّةً عاليَةً جِدًّا ، تُعْرَفُ بِاسْمِ « سَقْفِ العالَمِ » .

وكانَ المُرورُ وَسَطَ هذِهِ الجِبالِ العالِيَةِ أَصْعَبَ مِنْ كُلِّ الطُّرُقِ الَّتي مرَّ ماركُو ومُرافِقُوهُ بِها . ويُحَدِّثُنا ماركو في كِتابِهِ عَنِ الصُّعُوباتِ. الَّتي تَعَرَّضَ لَها هُوَ وأَبوهُ وعَمُّهُ في تِلْكَ البِلادِ الشَّديدَةِ الاَرْتِفاعِ وعِنْدَما وصَلُوا إِلَى بَلْدَةِ كاشْغَر وجَدُوا حَوْلَها سَهْلاً واسِعًا مُمْتَدًّا بالأَشْجارِ والأَعْشابِ ، وتَمُرُّ بِهِ أَنْهارٌ صَغيرَةٌ جَميلَةٌ مَليئَةٌ بالأَسْماكِ ، الَّتي أَخَذَ ماركو ومَنْ مَعَهُ يَصيدُونَها ويأْكُلُونَها .

ولكِنْ عِنْدَما أَخَذُوا يَطْهُونَ السَّمَكَ الَّذي اصْطادُوهُ ، لاحَظَ ماركُو بِدَهْشَةٍ ، أَنَّ قِلَّةَ كَثافَةِ الهَواءِ في ذلِكَ المَكانِ المُرْتَفِعِ تَجْعَلُ حرارَةَ النّارِ عِنْدَ اشْتِعالِها أَقَلَّ مِمّا هِيَ عَلَيْهِ في الأَماكِنِ المُنْخَفِضَةِ. ولِهذا فإِنَّ الطَّعامَ يَحْتاجُ إِلَى وَقْتٍ طَويلٍ لِكَيْ يَنْضَجَ .

ونَحْنُ نَعْرِفُ اليَوْمَ أَنَّ هذا شَيْءٌ طَبيعِيٌّ . فالماءُ يَغْلي في درجةِ حَرارَةٍ أَشَدَّ انْخِفاضًا كُلَّما كانَ المَكانُ أَكْثَرَ ارْتِفاعًا عَنْ سَطْحِ البَحْرِ ، لِأَنَّ الهَواءَ يَكُونُ رَقيقًا في الأَماكِنِ المُرْتَفِعَةِ



ومَرَّ ماركو بَعْدَ ذلِكَ بالطَّرَفِ الشَّماليِّ مِنْ كَشْميرَ، الّتي تُعْتَبَرُ مِنْ أَجْمَلِ بِلادِ العالَمِ. ووَجَدَ ماركو بَلْدَةَ كاشْغر مَمْلوءَةً بالحَدائِقِ الجَميلَةِ وكُرُومِ العِنَبِ . وفَجْأَةً تغَيَّرَ كُلُّ شيْءٍ حين وصل ماركو ورِفاقُهُ إلى صَحْراءِ غُوبي ، الّتي يحْتاجُ اجْتيازُها إلى أَكْثَرَ مِنْ شَهْرٍ كامِلٍ .

وكانَتِ الأَرْضُ هُنا تُثيرُ الاشْمِئْزازَ . فلَيْسَ فيها شَيْءٌ مِنْ عَلاماتِ الحَياةِ، بِاسْتِثْناءِ بَعْضِ الواحاتِ القَليلَةِ الموجُودَةِ هُنا وهُناك . ويقُولُ ماركو في وصْفِ هذِهِ الصَّحْراءِ : « إنَّ إحْدَى الحقائِقِ المُؤَكَّدَةِ المَعْرُوفةِ هِيَ أَنَّ هذِهِ الصَّحْراءَ هِيَ مَوْطِنُ الأَرْواحِ الشِّرِّيرةِ، الّتي تُضلُّ المُسافِرين وتُسَبِّبُ هلاكَهُمْ فعِنْدَما يَبْتَعِدُ المُسافِرُ عن الممرِّ الصَّحيحِ، ولا يَسْتَطيعُ العَوْدَةَ إلَيْهِ، يَضيعُ في الصَّحْراءِ ويمُوتُ جُوعًا . »

ورَأَى ماركو أَيْضًا سَرابَ الصَّحْراءِ العَجيبَ . فَعِنْدَما يُشاهِدُ إنْسانٌ سرابًا في الصَّحْراءِ، يتَخَيَّلُ أَنَّ في هذا السَّرابِ بُحَيْرات وأَشْجارًا، وحتَّى بناياتٍ تَبْدُو كَأَنَّها واقِعَةٌ وَسَطَ الرِّمالِ . أَما سَبَبُ رُؤْيَةِ السَّرابِ، الّذي هُوَ في الحَقيقَةِ شَيْءٌ لا وُجُودَ لَهُ ، فَيَرْجِعُ إلَى انعِكاسِ الضَّوْءِ القادِمِ مِنْ أَبْنِيَةٍ وأَشْجارٍ وأَشْياءَ مُخْتَفِيَةٍ حقيقيَّةٍ (تَقعُ في مكانٍ بعيدٍ جدًّا تحْتَ مُسْتَوى الأُفُقِ) على طَبَقَةٍ مِنَ الهَواءِ السَّاخِنِ .



كانَ ماركو سعيدًا بِتَرْكِ الصَّحْراءِ وَراءَهُ ، والوُصُولِ إلَى حقُولٍ خضْراءَ ، وأَوْدِيَةٍ خِصْبَةٍ يسْكُنُها النَّاسُ . وكانَ سُكّانُ هذِهِ المَناطِقِ مُهذَّبِينَ يُحيُّونَ الضُّيُوفَ والغُرباءَ ، إذِ اسْتقْبلُوا ماركو ومَنْ مَعَهُ بالتَّرْحِيبِ والغِناءِ ، ووَدَّعُوهُمْ بالغِناءِ أَيْضًا .

وأَخيرًا وصلَتِ القافِلَةُ بِسُرْعَةٍ إلَى مَدِينَةِ كان شو الصِّينِيَّةِ وهُنا لا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ ماركو قَدْ رأى أَوَّلَ مَرَّةٍ سُورَ الصِّينِ العَظِيمَ

ويُعْتَبرُ هذا السُّورُ واحِدًا مِنْ عَجائِبِ الدُّنْيا السَّبْعِ . وقَدْ تَمَّ بِناؤُهُ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفَي عامٍ ، لِحِمايَةِ حُدُودِ الصِّينِ الشَّمالِيَّةِ مِنْ هُجُومِ البرابِرَةِ

ولا يَزالُ هذا السُّورُ مَوْجُودًا حَتَّى اليَوْمِ . ويَبْلُغُ طُولُهُ ١٤٠٠ مِيلٍ . وهُوَ يَمْتَدُّ بَيْنَ الأَوْدِيَةِ وفَوْقَ الجِبالِ . وكانَ ارْتِفاعُهُ في الأَصْلِ عِشْرِينَ قَدَمًا وهو عريضٌ إلَى حَدٍّ يُمْكِنُ مَعَهُ أَنْ تَسِيرَ فَوْقَهُ عربتانِ جَنْبًا إلَى جَنْبٍ في وَقْتٍ واحِدٍ . وقَدْ بُنِيَتْ عَلَى الجِدارِ ، بَيْنَ مَوْقِعٍ وآخَرَ ، بُرُوجٌ كَثِيرَةٌ قَوِيَّةٌ ، يَجْلِسُ فيها الجُنُودُ الَّذِينَ يُدافِعُونَ عَنْ حُدُودِ الصِّينِ .

والغَرِيبُ أَنَّ ماركو بولو الَّذي ذَكَرَ كُلَّ شَيْءٍ تَقْرِيبًا عَنِ الصِّينِ ، لَمْ يَذْكُرْ شَيْئًا عَنْ سُورِها العَظِيمِ .



وبَعْدَ أنِ اسْتراحَ المُسافِرُونَ بَعْضَ الوَقْتِ في كانْ شو ، ساروا في اتِّجاهٍ شِماليٍّ شَرْقيٍّ . وقَبْلَ أَنْ يَصِلُوا إِلَى بكين بِأَرْبعين يَوْمًا ، اسْتَقْبَلَهُمْ عَلى الطَّريقِ رُسُلُ الإمبراطورِ كُبْلا خان .

وبالطَّبْعِ ، لَمْ تَكُنْ هُنالِكَ خُطُوطٌ هاتِفِيَّةٌ في ذلكَ العَصْرِ . ولكِنْ كانَ عِنْدَ الصِّينِيِّينَ نِظامٌ مُمْتازٌ لِنَقْلِ الرَّسائِلِ والأَخْبارِ . فَقَدْ كانَتْ تُوجَدُ في مُخْتَلِفِ أَنْحاءِ الصِّينِ مَحَطّاتٌ مُعَيَّنَةٌ ، كُلُّ واحِدَةٍ مِنْها تَبْعُدُ عَنِ الأُخْرَى عِشْرينَ مِيلًا . وفي كُلِّ مَحَطَّةٍ كانَ يُوجَدُ عَدَدٌ مِنَ الرِّجالِ والخُيُولِ الواقِفِينَ عَلَى اسْتِعْدادٍ . فإذا كانَتْ هُناكَ رِسالَةٌ هامَّةٌ ، يُرادُ نَقْلُها مِئاتِ الأَمْيالِ ، وأَحْيانًا آلافَ الأَمْيالِ ، كانَتْ تُسَلَّمُ في أَقْرَبِ مَحَطَّةٍ ، فَيَنْقُلُها رَجُلٌ مِنْ هٰذِهِ المَحَطَّةِ ، ويَنْطَلِقُ بِسُرْعَةٍ عَلَى ظَهْرِ جَوادِهِ حَتَّى المَحَطَّةِ الثّانِيَةِ ، فَيُسَلِّمُ الرِّسالَةَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ هٰـذِهِ المَحَطَّةِ الثّانِيَةِ . وهٰكَذا إِلَى أَنْ تَصِلَ الرِّسالَةُ إِلَى أَقْرَبِ مَحَطَّةٍ مِنَ البَلْدَةِ الَّتي يُرادُ تَسْليمُ الرِّسالَةِ فيها . وبِهٰذِهِ الطَّرِيقَةِ لَمْ يَكُنْ تَسْلِيمُ الرَّسائِلِ يَتَأَخَّرُ طَويلًا . وكانَ فَوْقَ سَرْجِ كُلِّ حِصانٍ جَرَسٌ يَدُقُّ ما دامَ الحِصانُ يَجْري فكانَ رِجالُ المَحَطَّةِ يَسْمَعُونَ أَصْواتَ الأَجْراسِ مِنْ بَعيدٍ ، فَيَسْتَعِدُّونَ لِتَسَلُّمِ الرِّسالَةِ .

وبِهٰذِهِ الطَّرِيقَةِ كانَتِ الرِّسالَةُ تُنْقَلُ مَسافَةً تَتَراوَحُ بَيْنَ أَرْبَعِمِئَةِ مِيلٍ وخَمْسِمِئَةِ مِيلٍ في اليَوْمِ الواحِدِ .



وبِفَضْلِ نظامِ المُواصَلاتِ هذا، استطاع الإمبراطورُ كُبْلا خانُ أَنْ يَعْرِفَ خَبَرَ قُدُومِ رجالِ البُنْدُقِيَّةِ الثَّلاثَةِ قَبْلَ أَرْبَعينَ يَوْمًا مِنْ وُصُولِهِمْ إِلَى قَصْرِهِ .

وقَدْ كانَتِ الأيّامُ الأَرْبَعُونَ المَذْكُورَةُ مُخْتَلِفَةً جِدًا عَنِ الأَيّامِ السّابِقَةِ الّتي اجْتازُوا فيها الصَّحْراءَ . فقَدْ أَصْبَحَ فيها المُسافِرُونَ تحْتَ حِمايَةِ الإمبراطورِ . وكانُوا يُعامَلُون بِاحْتِرامٍ ولُطْفٍ أَيْنَما ذهَبُوا ، لِأَنَّ النّاسَ كانُوا يعْرِفُونَ أَنَّهُمْ ضُيُوفُ الإمبراطورِ .

وعِنْدَما وَصَلُوا إِلَى « شانْدو » قَصْرِ الإمبراطورِ العَظيمِ الصَّيفيِّ المُمْتازِ ، وَجدُوهُ مبْنِيًّا مِنَ الرُّخامِ . وكانَتْ قاعاتُهُ وغُرَفُهُ الواسِعَةُ مُزَيَّنَةً بالذَّهبِ . وكانَتْ ثِيابُ الإمبراطورِ وأَفْرادِ حاشِيَتِهِ ، المَصْنُوعَةُ مِنَ الحَريرِ ، تُشَكِّلُ مَعَ الزِّيناتِ الدّاخِلِيَّةِ لِلْقَصْرِ ، مَنْظَرًا جميلًا جِدًّا ، أَثارَ دَهْشَةَ رِجالِ البُنْدُقِيَّةِ الثّلاثَةِ ، وهُمْ يَقْتَرِبُونَ مِنْ عرْشِ الإمبراطورِ .

وكان كُبْلا خانُ يعْرِفُ نِقولا ومافيو ، ولكِنَّهُ لَمْ يكُنْ يَعْرِفُ ماركُو ، الّذي رآهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، والّذي سَيُؤَدّي للإمبراطورِ خَدَماتٍ عَظيمَةً في السَّنَواتِ التّالِيَةِ .



لَقَدِ اسْتَغْرَقَتِ الرِّحْلَةُ مِنَ البُنْدُقِيَّةِ إِلى الصِّينِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلاثِ سَنَواتٍ. ومِنْ وَقْتٍ إِلى آخَرَ كانَ نِقولا ومافيو والشّابُّ الصَّغيرُ ماركُو يَبْقَوْنَ في بَعْضِ المُدُنِ أَسابيعَ وأَحْيانًا أَشْهُرًا لإِنْجازِ أَعْمالِهِمُ التِّجارِيَّةِ.

وكانَ ماركُو قَدْ غادَرَ البُنْدُقِيَّةَ، وهُوَ فَتًى صَغيرٌ، ولكِنَّهُ أَصْبَحَ، حينَ وَصَلَ إِلى الصِّينِ مَعَ أَبيهِ وعَمِّهِ، شابًّا في العِشرينَ مِن عُمْرِهِ. وقدِ اسْتَقْبَلَهُ الإِمبراطورُ كُبْلا خان بِلُطْفٍ وتَرْحيبٍ عظيمَيْنِ. فبقِيَ ماركُو بِضْعَةَ أَشْهُرٍ في القصْرِ الصَّيْفِيِّ، واشْتَرَكَ في رِحْلاتِ الصَّيْدِ الَّتي كانَ الإِمبراطور يُحِبُّها أَكْثَرَ مِنْ أَيَّةِ رِياضةٍ أُخْرى.

ويَصِفُ ماركُو بولو السُّرادِقَ الكبيرَ، الَّذي كانَتْ تَنْقُلُ أَجْزاؤُهُ على ظُهُورِ أَرْبعةِ فِيلةٍ تَتْبَعُ مَوْكِبَ الإِمبراطورِ، وهو ذاهِبٌ إِلى الصَّيْدِ. وكانَ هذا السُّرادِقُ مَصْنُوعًا مِنَ الخشبِ المحْفُورِ بِنُقُوشٍ جميلةٍ جِدًّا. أَمّا مِنَ الدّاخِلِ فكانَ يُغطّى بِقُماشٍ مُذَهَّبٍ، بيْنَما كانَ يُغطّى مِنَ الخارِجِ بِجُلودِ الأُسُودِ.

وكانَتْ حاشِيَةُ الإِمبراطورِ تَصْحَبُ معها نُمُورًا وفُهُودًا وأُسُودًا مُدَرَّبَةً على جلْبِ الطَّريدَةِ بعْدَ إِصابَتِها. وكانَ عددُ رِفاقِ الإِمبراطورِ في أَثْناءِ الصَّيْدِ يَبْلُغُ آلافَ الجُنُودِ والمدنِيِّينَ. وعِنْدَما كانُوا يتوقَّفونَ للاستِراحَةِ والنَّوْمِ في اللَّيْلِ، كانَتِ الخِيامُ والسُّرادِقاتُ الَّتي يَنْصُبُونَها تَظْهَرُ كَأَنَّها مَدِينَةٌ كَبيرَةٌ، كما يَقُولُ ماركُو.



وعِنْدَما وصَلَ ماركُو إلَى بكينَ، عاصِمَةِ الصِّينِ، لَمْ يكُنْ هذا هُوَ اسْمَها في ذلِكَ الحِينِ، بَلْ كانَ اسْمُها كانبالو، أوْ تاي دو.

كانتْ مدينةً جَميلَةً جِداًّ، مَبْنِيَّةً علَى شكْلِ مُرَبَّعٍ، طُولُ كُلِّ جانِبٍ مِنْ جَوانِبِهِ الأَرْبعةِ سِتَّةُ أَمْيالٍ، ويُحيطُ بِها سُورٌ عالٍ لَهُ اثْنَتا عَشْرَةَ بَوّابَةً وعِدَّةُ أَبْراجٍ. ويَحْرِسُ كُلَّ بَوّابَةٍ أَلفُ جُنْدِيٍّ. وكانَتِ الشَّوارِعُ الطَّويلَةُ داخِلَ السُّورِ مَبْنِيَّةً بِاسْتِقامَةٍ، يقْطَعُ كُلُّ خَطٍّ مِنْها الخُطُوطَ الأُخْرَى بِزَوايا قائِمَةٍ.

وكانَ في وَسَطِ المَدينَةِ جَرَسٌ ضَخْمٌ، يَدُقُّهُ الجُنُودُ كُلَّ لَيْلَةٍ. وبعْدَ الضَّرْبَةِ الثّالِثَةِ لِلْجَرَسِ، لَمْ يَكُنْ يُسْمَحُ لِأَحَدٍ بِأَنْ يسير في الشَّوارِعِ إلّا إذا كانَ عِنْدَهُ عَمَلٌ مُهِمٌّ عاجِلٌ.

وكانَ قَصْرُ كُبْلا خان أعْلَى جِداً مِنْ كُلِّ مَنازِلِ المَدينَةِ. وكان سَقْفُه مُبَلَّطاً بِبَلاطٍ ذَهَبِيٍّ، كما كانَتْ جُدْرانُهُ الدّاخِلِيَّةُ مُزيَّنَةً بدهانٍ ذهبيٍّ. وتَتَّسِعُ قاعَةُ الطَّعامِ الكُبْرَى في القصْرِ لِسِتَّةِ آلافِ ضَيْفٍ في وَقْتٍ واحِدٍ.



وبَعْدَ وَقْتٍ قَصِيرٍ عَيَّنَ الإمبراطورُ ماركُو بولو مُوَظَّفًا في الدَّوْلَةِ ، فَأَظْهَرَ بِاسْتِقامَتِهِ أَنَّهُ أَهْلٌ لِلثِّقَةِ .

وكان ماركُو مُجِدًّا في عَمَلِهِ ومُحِبًّا لِلإتْقانِ . وبدأ يتعلّمُ اللُّغاتِ الرَّئِيسةَ الأَرْبَعَ المُسْتَخْدَمةَ في الصِّينِ . وهذا جعلَ الإمبراطورَ يُكَلِّفُهُ بِأَعْمالٍ مُهِمَّةٍ جِدًّا

وبعْدَ بِضْعِ سنواتٍ فقط ، وقبْلَ أَنْ يَبْلُغَ الثَّلاثِين مِنْ عُمْرِهِ ، عَيَّنَهُ الإمبراطورُ حاكِمًا على مِنْطقةِ يان - غْوِي على الرَّغْمِ مِنْ صِغَرِ سِنِّهِ وكَوْنِهِ أَجْنَبِيًّا . كان الإمبراطورُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ مِن الأَنْسبِ أَنْ يَكُونَ الحاكِمُ أَجْنَبِيًّا لَيس لهُ أَقْرِباءُ أَوْ أَصْدِقاءُ ، فلا يتحيَّزُ لِأَحَدٍ .

وظَلَّ ماركُو بولو ثَلاثَ سَنَواتٍ يَحْكُمُ بِاسْمِ الإمبراطورِ . وهُو يُحدِّثُنا في كِتابِهِ عن الأَوْراقِ المالِيَّةِ المطْبوعةِ ، والمَصْنوعةِ مِنْ قُشُورِ أَشْجارِ التُّوتِ . فقدِ استخْدَمَ الصِّينيُّون الأَوْراقَ المالِيَّةَ المطْبوعةَ قبْلَ مِئاتِ الأَعْوامِ مِنْ بدْءِ دُولِ أوروبّا الغَرْبِيَّةِ باسْتِخْدامِها .

وكانتْ تِلْكَ الأَوْراقُ المالِيَّةُ تُدْمَغُ بالخَتْمِ المَلَكِيِّ وبالحِبْرِ الأَحْمرِ . ويُمْكِنُ استِعْمالُها في أَيِّ بُقْعَةٍ مِن الإمبراطوريَّةِ الصِّينِيَّةِ .



وبَعْدَ أَنْ أَمْضَى ماركُو بولو ثَلاثَ سَنَواتٍ حاكِمًا لمنطقَةِ يان-غُوِي ، أَصْبَحَتْ للإمبراطورِ ثِقَةٌ كَبِيرَةٌ بِهِ ، فراحَ يُرْسِلُهُ في رِحْلاتٍ بَعيدَةٍ إلَى أَجْزاءِ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الصِّينِ، تَبْعُدُ مِئاتِ الأَمْيالِ عنِ العاصِمةِ بكينَ ، وذلِكَ لِكَيْ يَقُومَ بِأَعْمالٍ مُهِمَّةٍ .

وفي إحْدَى هذِهِ الرِّحْلاتِ ذهَبَ إلَى البِلادِ المعْرُوفةِ اليوْم بِاسْمِ بُورما . أَمْضى في الطَّرِيقِ ثَلاثَةَ أَشْهُرٍ ونِصْفَ الشَّهْرِ . يُرافِقُهُ عدَدٌ مِنَ الجُنُودِ والخَدَمِ لِأَنَّهُ مَنْدُوبُ الإمبراطورِ . وزار في هذِهِ الرِّحْلةِ أماكِنَ شَهِيرَةً مُخْتَلِفَةً مِثْلَ كَرازان وكاين دُو وياتشي مدينةِ كَرَيانَ العَظِيمَةِ .

وأَخِيرًا، وَصَلَ إلَى مَدِينَةِ مِيْنَ . وهُنا رَأَى ماركُو ضَرِيحًا عَظِيمًا، وصفهُ بِأَنَّهُ يَتَكَوَّنُ مِنْ هَرَمَيْنِ، أَحَدِهِما مُعَطًّى بالفِضَّةِ . والثَّاني بالذَّهَبِ بِسُمْكٍ يَزِيدُ عَنْ سنتيمترين . وكانَتْ تَعْلُو كُلَّ هَرَمٍ كُرَةٌ ذَهَبِيَّةٌ ، يُحِيطُ بِها عَدَدٌ مِنَ الأَجْراسِ الصَّغِيرَةِ ، الّتي تَدُقُّ كُلَّما هَبَّتِ الرِّيحُ .

ومِنْ بَيْنِ الرِّحْلاتِ الأُخْرَى الّتي قامَ بِها، رِحْلَةٌ وَصَلَ خِلالَها إلَى جِبالٍ مُغَطّاةٍ بالثُّلُوجِ والجَلِيدِ. يَلْبَسُ سُكّانُها الجُلُود، ويتنقَّلونَ مِنْ مَكانٍ إلَى آخَرَ بِواسِطَةِ الزَّلّاجاتِ .



وبَعْدَ أنْ أمْضى ماركُو بولو سَبْعَةَ عَشَرَ عامًا في الصِّينِ، أصْبحَ رَجُلًا غنيًّا، وأخذَ يُفكِّرُ في العَوْدَةِ إلى بَلْدَةِ البُنْدُقيَّةِ. وكان كُبْلاخانُ قدْ أصْبحَ شيْخًا مُتقدِّمًا في السِّنِّ. فخشِيَ ماركُو أنْ يَتعرَّضَ لِلأذى بَعْدَ وَفاةِ الإمبراطورِ.

كذلِكَ كانَ نِقولا ومافيو قدْ شاخا. وأصْبحا عَجوزيْنِ. ورَغِبا في قضاءِ ما تبقَّى لهُما مِنَ العُمْرِ في وَطَنِهِما البُنْدُقيَّةِ.

ولَمْ يكُنْ كُبْلاخانْ راغِبًا في أنْ يسْمحَ لهُمْ بالعوْدَةِ. إذْ أصْبحَ غيْرَ قادِرٍ على الاسْتِغْناءِ عَنْ خدَماتِ ماركُو وإخْلاصِهِ المُتناهي ولكِنْ حَدَثَ أنَّ أميرَةً صِينيَّةً كانَتْ تسْتعِدُّ لِلسَّفرِ بِطريقِ البحْرِ إلى ميناءِ هرمز لِتُصْبِحَ زوْجةً لِملِكِ الفُرْسِ.

وطَلَبَ السُّفَراءُ، الّذينَ أرْسَلَهُمْ مَلِكُ الفُرْسِ لِمُرافَقَةِ الأميرَةِ، أنْ يَصْحَبَهُمْ في رِحْلَةِ العَوْدةِ إلى هرمز رِجالُ البُنْدُقيَّةِ الثّلاثَةُ، لِما لَهُمْ مِنْ خبْرَةٍ واسِعَةٍ في المِلاحَةِ البَحْرِيَّةِ.

فوافقَ كُبْلاخانْ على طَلَبِهِمْ، وأعدَّ لهُمْ مجْموعةً من السُّفُنِ وغادَرَتِ السُّفُنُ شَواطِئَ الصِّينِ عامَ ١٢٩٢. وكانَ ماركُو قَدْ بَلَغَ مِنَ العُمْرِ ثمانِيَةً وثلاثِينَ عامًا. وسافرتِ المجْموعةُ. ولكِنّها اضْطُرَّتْ إلى التّأخُّرِ في أماكِنَ كثيرةٍ في أثْناءِ السَّفرِ. وهكذا دامتِ الرِّحْلَةُ إلى بِلادِ فارِسَ عامَيْنِ.



وعِنْدَما وَصَلَ ماركو إلى فارِسَ ، سَمِعَ خَبَرَ وَفاةِ كُبْلا خان .
فقرَّرَ الثّلاثَةُ أَنْ لا يَعُودوا إلى الصّينِ .

أَمَرَ مَلِكُ فارِسَ الشّابُّ بإعْدادِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الجُنُودِ لِمُرافقَتِهِمْ وحِمايَتِهِمْ . ولولا هٰذِهِ الحِمايَةُ لَتَعَرَّضُوا لِخَطَرِ القَتْلِ في الطَّريق .

وفي عام ١٢٩٥ وَصَلَ الثّلاثَةُ أَخيرًا إلى البُنْدُقِيَّةِ، بَعْدَ أَنْ غابُوا عَنْها أَرْبَعَةً وعِشْرينَ عامًا .

لَمْ يَعْرِفْهُمْ أَحَدٌ مِنْ سُكّانِ المَدينَةِ ، إذْ كانُوا يَرْتَدُونَ مَلابِسَ تُشْبِهُ مَلابِسَ التَّتَرِ . وكانُوا قَدْ أَوْشَكُوا أَنْ يَنْسَوْا التَّحَدُّثَ باللُّغَةِ الإيطالية . أَمّا حِكاياتُهُمْ عَنْ عَظَمَةِ كُبْلا خانَ فَلَمْ يُصَدِّقْها أَحَدٌ . وأَخَذَ تُجّارُ البُنْدُقِيَّةِ يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ، ويَصِفُونَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُتَشَرِّدُونَ أَدْنِياءُ .

ولكِنَّ هؤُلاءِ الرَّحّالَةَ لَمْ يَكُونُوا فُقَراءَ ، كما بَدا مِنْ مَظْهَرِهِمْ . فَعِنْدَما كَشَفُوا أَطْرافَ عَباءاتِهِمُ القَذِرَةِ، أَخْرَجُوا مِنْ جُيُوبِهِمُ الدّاخِلِيَّةِ عَدَدًا كَبيرًا مِنَ المُجَوْهَراتِ .



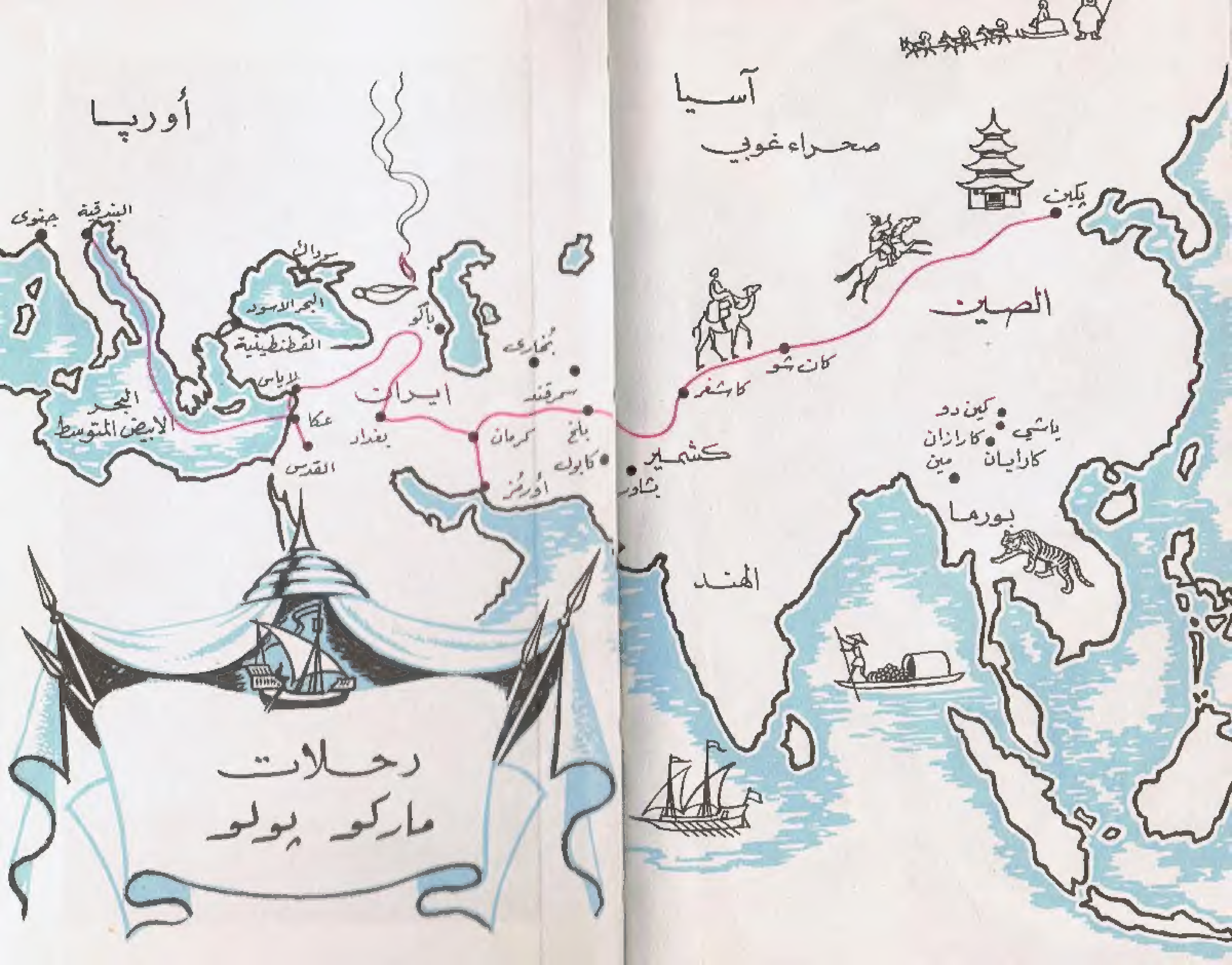
والسُّؤالُ الآنَ هُوَ كَيْفَ كُتِبَتْ قِصَّةُ ماركُو بولو ؟

والجَوابُ هُوَ إِمّا أَنَّهُ كانَتْ لماركُو بولو ذاكِرَةٌ قَوِيَّةٌ جدًّا، أَوْ أَنَّهُ كانَ يَحْتَفِظُ بِمُذَكِّراتٍ كانَ يَكْتُبُ جانِبًا مِنْها كُلَّما زارَ مَكانًا ما . فَلَوْلا ذلِكَ لَما اسْتَطاعَ أَنْ يُملي بَعْدَ سَنَواتٍ طَويلَةٍ ما جاءَ في كِتابِهِ المَشْهُورِ .

والمَعْرُوفُ أَنَّ ماركو أَمْلَى كِتابَهُ عَلَى رَجُلٍ ، كانَ رَفيقًا لَهُ في أَحَدِ سُجُونِ جَنَوى . إِذِ اعتَقَلَتْ حُكُومَةُ جَنَوى الرَّجُلَيْنِ بَعْدَ مَعْرَكَةٍ بَحْرِيَّةٍ دارَتْ بَيْنَ أُسْطُولَيِ البُنْدُقِيَّةِ وجَنَوَى .

وفي تِلْكَ المَعْرَكَةِ ، كانَ ماركُو بولو يَقُودُ إِحْدَى سُفُنِ البُنْدُقِيَّةِ ، فاسْتَطاعَ بَحّارَةُ جَنَوى أَنْ يَعْتَقِلُوهُ ويَسْجنوهُ ثَلاثَ سَنَواتٍ ، عادَ بَعْدَها إِلى البُنْدُقِيَّةِ لِلْمَرَّةِ الثّانِيَةِ والأَخيرَةِ ، وذلِكَ عامَ ١٢٩٩ . وهكذا انْتَهَتْ مُغامَراتُهُ الشَّهيرَةُ .

ونَحْنُ لا نَعْرِفُ عَنْ ماركُو بولو شَيْئًا أَكْثَرَ مِمّا ذَكَرَهُ هُوَ نَفْسُهُ في كِتابِهِ المَذْكُورِ . وسَيَبْقَى هذا الكِتابُ مَصْدَرًا نَعْرِفُ مِنْهُ الشَّيْءَ الكَثيرَ عَنْ تاريخِ الشَّرْقِ الخِصْبِ الغَنِيِّ ، كما سَيَظَلُّ العالَمُ يَذْكُرُ إِلَى الأَبَدِ أَنَّ ماركُو بولو واحِدٌ مِنْ أَعْظَمِ الرَّحّالَةِ الَّذينَ عَرَفَهُمُ التّاريخُ .



أوربا
آسيا
صحراء غوبي
بكين
الصين
كان شو
كاشغر
كين دو
ياشي
كارازان
كارايان
مين
بورما
الهند
كشمير
بشاور
كابول
بلخ
سمرقند
بخارى
كرمان
أورمز
بغداد
ايران
باكو
البحر الاسود
القسطنطينية
لاياس
عكا
القدس
البحر الابيض المتوسط
البندقية
جنوى
رحلات
ماركو بولو

Series 561 / Arabic

السّلسلة التّاريخيّة

(١) جان دارك

(٢) ماركوبولو

(٣) الكابتن سكوت

(٤) نابوليونُ

(٥) كليوباترا ومصْرُ القَديمةُ

(٦) تشارلز ديكنز

(٧) كريستوفر كولُمْبس

(٨) الإسْكَنْدَرُ الأكْبَرُ

(٩) الحضاراتُ الكُبْرى : مصر
